كتابات بالحرف المسماري

منقوشة على جدران زقُّورة أُور

. طراد الكبيسي ❖ .

ـ ١ ـ

كتبتُ اسمي على صَخْرة. / رَميْتُها في الماءْ. / نَمَتْ. صارتْ شجرةْ. / الشجرةُ أثْمرَتْ ثَمَرةْ. / من أكلها صبيًّا. لن يغادِرْ صِبَاهْ. / من أكلها شيخًا، عادَ صَبيًّا إلى صِباهْ!

ـ ٢ ـ

كتبتُ اسمي على صَخْرَةْ. / ضَرَبْتُ بها حجرًا. / تفجَّرَ الحَجَرُ ماءً ودماءْ. / قال: لَيْتني الحُوتُ أضمُّكَ داخلي. / ثمَّ أَلِدُكَ صبيًّا ـ تَرْعاكَ شجرةُ اليقطين!

ـ ٣ ـ

كتبْتُ اسمي على مَوْجَة. / نزلت الموجةُ إلى قاعِ الماءْ. / جَرَتْ مع الطُوفانْ. / ثُمَّ رَسَتْ عند جَبَلِ الجُودي / قُلْتُ: ماذا اكْتَشَفْت؟ / قالتْ: صَمْتَ المياهْ! / وكان الجَبلُ يَغْلي مثل مَوْقدٍ رهيبٍ من نارْ. / شَرِبَ المياهَ ليُطْفئَ حُرْقَتَهُ. / وهكذا راحت الأرضُ ـ كأنَّها يوم انْفصَلَتْ عن السماءْ ـ تَعْدُو مثل جُنديٍّ فارٍّ من جبهةِ الحَرْب ـ تصبغُ شفَتَيْها بالكَرَز. / وتَدْهنُ جِلْدَها بزيتِ جَوْزِ الهند.

ـ ٤ ـ

قال: ليتَ الفتى حَجَرُ! / قلتُ: ليتني حَجَرْ: مَسلَّةُ حمورابي / نَصْبُ الثور الآشوريِّ المُجنَّح. / نَصْبُ أَسَدِ بابل. / نَصْبُ أبي الهول. / وتُوتُ عنج آمون... وأنْصابُ آلهةٍ لا تُحصى من اللاَّت والعُزَّى إلى مَنَاةَ الثالثة الأُخرى. / كُلُّهُم نُصُبٌ من حَجَرٍ يحكون. وأنا وحدي لا أتكلَّم. / لهم قصصٌ ورُواةٌ. وأنا لا قصَّة ولا راوٍ. وحدي مع الصمت! أنا مَحْضُ صمت!

ـ ٥ ـ

أَسْمعُ أجراسَ الكنائس. والمدارس. / وأسمعُ طبولَ الحربِ تُقْرَعْ. / وأسمعُ صوتَ شجرةٍ، صوتُها لا يُسْمَع! / أسألُ: أيُّها أحقُّ أن يُسْمَع؟ / تقولُ: خَيْرٌ لكَ ألاَّ تَسْمَعْ!

ـ ٦ ـ

قالَ: لا تَحْزَنُوا. واستبشروا بغدٍ آت. / قلتُ: لكَ الويلُ ألا تعلمُ أنَّ كلَّ غدٍ ماتْ. / ومن ماتَ فاتْ؟ / ألا ترى الناسَ يذهبونَ فلا يرجعون: سواءٌ رَضُوا بالْمُقام فأقاموا، أمْ تُرِكُوا هناك فَنامُوا!

ـ ٧ ـ

مرَّةً. رأيْتُ جَمْعًا من الجنود الأمريكان يقتلون شجرةَ توتٍ: بعضُهم يُقطِّعُ أغصانَها ويرمي بها إلى النار / وبعضٌ يحصدُ ثمرَها ويرمي به أرضًا. / آخرُ يضربُها بأَخْمصِ رشاشته. / وآخرُ يبحثُ عن منشارٍ

❖ ـ شاعرٌ وناقدٌ من العراق.

ليُقطِّعَها من الجَذْرِ. / قلتُ: ما الذنبُ الذي ارتكبته الشجرةُ هذه؟ / قال كبيرُهم: إنَّها تجلسُ في طريقنا: تنظرُ الذاهبَ والآيبَ. وتتظاهرُ كأنَّها لا ترانا. إنَّها تنقلُ أخبارنا للأرهابيين الذين تدعونهم: المُقاومة! وربّما ـ يومًا ـ تُفجِّرُ نَفْسَها ـ شأنَ الأنتحاريّاتِ، بحزامٍ ناسِف!

ـ ٨ ـ

مرَّةً. نزلتُ ضيفًا على أحدِ البُداةِ في صحراءِ نيقادا. / طوالَ الليل والنهار، راح كلْبُ الجيران يَنْبَحْ. / أعرفُ أنّي أنا المقصود. لكنْ ما عسايَ أفعلُ غيرَ أن أُردِّدَ قولَ الشاعر:

قومٌ إذا استَنْبَحَ الأضْيافَ كَلْبَهُم

قالوا لأُمِّهم بُولي على النارِ.

ـ ٩ ـ

يكتبُ شاعرٌ أمريكا America بالألْفِ الممدودةِ. / وأنا أكتُبها بالألف المكسورةِ، داعيًا:

يا ربّ: إكسرْ أمريكا مثلما كسَرت العراق!

يا ربّ: كأصحاب الفيل. أرسلْ عليهم طيراً أبابيلْ. ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيل.

يا ربّ: ألقِ البرابرةَ الجُددَ، جُثثًا عَفِنةً في شطّ العرب. تشمئزُّ من أكلها حتى السّحالي والجُرذان.

ـ ١٠ ـ

يومَ انْحَدَر السيلُ العَرِمُ نَحْوَ سدٍّ مأرِب. / كنَّا نقفُ أعلى السدّ. ولا علْمَ لنا بخَبَرِ السيل. / جاءَ السيلُ العَرِمُ: جَرَفَ السدَّ وجَرَفَنا معه. / كِدْنا نهلكُ لولا أنَّنا استنجَدْنا بطيرٍ أبابيل. / جاءَت الطيرُ الأبابيلُ وراحتْ تمطرُ السيلَ بحجارةٍ من سِجِّيل حتى همَد مكانه!

ـ ١١ ـ

مرَّةً، في الليل تزورني الشمسُ. / وتغيبُ، مرّةً، في النهار. / سألتُها: قالتْ: أحيانًا يكون لديَّ ضيوفٌ. / ومنهم صاحبُكَ. أمسِ كان عندي. / قلتُ: مَنْ صاحبي؟ / قالتْ: ذو القَرْنين. / قلتُ: لا صاحبَ لي بهذا الاسم! / قالتْ: آخُذُكَ إليه. إنَّهُ صاحبُكَ. / ذهبتُ. قال: أنا الاسكندرُ ذو القرنين. أنا صاحبُكَ مُنذ الآن. / ذَهَبْنا إلى حيث تطلعُ الشمسُ. / وجدناها تطلعُ على قومٍ عُراةٍ، ولا ستارَ يقيهم حَرَّها. / ثُمَّ ركَبْنا سفينةً وتوجَّهنا إلى حيثُ تَغْرُبُ. / وجدناها تستحمُّ في عَيْنِ ماءٍ دافئة. / ثُمَّ واصلنا المسيرَ حتى بَلَغْنا العراقَ. / وجَدْنا قومًا مُفْسدينَ في الأرض! / سألنا: مَنْ القوم؟ / قالوا: يأجُوج ومَأجوج. ويسمُّونهم اليوم: الأمريكان. ومَنْ شاكلهم من الإنكليز والحميرِ والخِصْيان!

ـ ١٢ ـ

عصفورةٌ نامت في شرفةِ المنزل. / قلتُ: أين، إذن، أنامُ أنا؟ قالوا: إسْتَلْقِ حيث شِئْتَ. / فليس المهمُّ اسمَ المكان:

المكانُ صندوقٌ من خَشَبْ: / ننامُ فيه أحياءً وأمواتًا، يُنْقَلُ من مكانٍ لمكان!

- ١٢ -

في ظهيرةِ يومٍ قائظٍ: كان يغطُّ صاعداً نازلاً في نَهْرِ دجلةَ. قلتُ: مالكَ؟ عمَّ تبحثُ؟ قال: أبحثُ عن كتاب: كتاب خَبَّأْتُ فيه كلَّ أهوائي. / أَلقى به المغولُ في النهر. / قلتُ: وهل تظنُّ أنَّ الكتابَ لا يزالُ ينتظرُ أن تُنقِذَهُ من أن يمحُوهُ الماءْ؟ / قال: إنَّه كتابٌ لا يموتُ إلاّ بموتي. ينامُ ويحلُمُ بي. / وأنا أراهُ كلَّ صباحٍ واقفًا عند الباب. / لكنَّه يَفرُّ قَبْلَ أنْ أَفْتَحَ الباب ـ وكأنَّهُ يخشى أنَّ المغولَ لا يزالون عند حافّةِ النهر ـ ينتظرون خُروجَهْ!

- ١٤ -

فاختةٌ وقَفتْ في أعلى الدار. / كلَّمتْ أُخْتَها: / أجابت الأُختُ: أنا في أعلى الأشجارْ. / أَبْني عشًّا بالموزايك والقشِّ وأغصانِ الدرارْ. / تحتي بَحْرٌ وجَنْبي نارْ: / أطبخُ تُوتًا وقَثَّاءَ وباقلاءْ / وأشربُ ماءْ. / وأتغنَّى بالأشعار!

- ١٥ -

حدِّثني مُعجبونَ كُثُرٌ عن غناءِ الجنّيات. / ورَقْصِهنَّ. / وكيفَ يلعَبْنَ بذيولهنَّ. / لكنّي رأيتُ من البَشَرِ مَنْ يُجنِّنُ الجنْ: / ويقودهُنْ عِطاشًا إلى النَهْرِ. / ثُمَّ عِطاشًا يُعيدهُنْ! / ويفرشُ ذَيْلَهُ زِرْبيَّةً تحتَ أقدامِهنْ!

- ١٦ -

مرَّةً، أخذتُ طريقي في البحر سَرَبًا. / أبحثُ عن الوقت الضائعِ. / ضِعْتُ. / خَرَج لي مصباحٌ: قال: أُفْرُكْني. وستجدُ مَنْ يُوصلكَ إلى حيث تُريدْ. / فركْتُ المصباحَ. / ظَهَر لي حصانٌ أزرقُ. قال: لبّيكَ! قلتُ: أُريدُ «المفتاحَ» كلمةَ السِّرِ في الدخول إلى نَفْسي. أحسُّ أنّي بعيدٌ عنها. / أريدُ كلمةَ السِّر في الدخول إلى الأماكن المُغْلقة. وتلكَ التي لا يُعْرَفُ سِرُّ وجودها. / قال: أتكون أنتَ من أصحاب الكَهْف. تبحثُ عن كهوفٍ تدخلُها؟ / قلتُ: أنا مَنْ أهوى. ومَنْ أهوى أنا.

فلماذا يُضيِّعُ حُبَّنَا!؟

- ١٧ -

❖ قال: البرْدُ يَلْسَعُني هل من دِفْءٍ؟

ـ أَلْبسناهُ مِعْطفَ غوغول.

❖ قال: ظمآنُ!

ـ ضربْتُ الحَجَر بعصا موسى فتفجَّر اثنتا عشرةَ عينًا. شَرِبَ حتى إرتوى.

❖ قال: جائعٌ!

ـ طبَخْنا له ثُومًا وبَصَلاً وقثَّاءَ على لحْمِ بقرةٍ صفراءَ فاقعٍ لونُها. لمّا أكَل حتى شَبِعَ، قال: إنَّ لونَ البقرة محلُّ خلاف!

❖ قال: يكادُ الرملُ والحصى يَفْرمانِ قَدميَّ!

ـ أَلبسناهُ نَعْليْ موسى اللتيْن خَلَعَهُما ودخلَ الوادي المقدَّس: طِوى.

❖ قال: أَبعِدوا زرقاءَ اليمامة. إنَّها تنظرُ إليَّ وكأنَّها تراني عاريًا!

ـ جَعَلْنَا شجرةً تمشي أمامه. تُغطِّي عُرْيَهُ/لكنَّ حطَّابينَ ظنُّوها تُخبِّئُ خَلْفَها أعداءَ لهم. / قَطَّعُوها وأَشعلوا فيها النار.

* قال: إذا متُّ، لا أريدُ تابوتًا من خَشَبْ. / أريدُ تابوتًا من حَجَر. / كما كانَ يُدْفَنُ ملوكُ أُورَ(*) وأَريدو.

وأُوروكَ. /الخَشَبُ يَبْلى بعد عامٍ. ويتركني في العُرْي. /بينما الحَجَرُ خالدٌ، خُلودَ الآلهة!

ـ ١٨ ـ

* قال: أما خَلَقَ اللَّهُ لكُمْ: البغالَ والحميرَ والخيولَ والجِمالَ لتركبوها؟ /لماذا تتركوها وتركبونَ «الشَّمَنْدَفَرْ»؟

ـ أركَبْناهُ بَغلاً. راحَ يطَّوَّفُ به في جِبال كُردستان. /لكنَّ البَغْلَ ما لبثَ أن ضَجِرَ. /فألقى بنفسهِ وحِمْلِه من أعلى قمَّةِ جَبَلٍ ـ مُنْتَحِرًا ـ إلى وادٍ عميق!

عمّان

إضاءات

(١) في فقرة (٦) تضمينٌ من خُطبة مشهورة لقسّ بن ساعدة الأياديّ.

(٢) في فقرة (١٦) تضمين لأبن عربي.

(٣) أُور. وأَريدو. وأوروك... من المدن السومريّة ـ البابليّة.

(٤) «الشَّمَنْدَفَرْ» في الفقرة (١٨) هو القطار ـ حسب التعبير العُثمانيّ ـ أيّام الدولة العثمانيّة.

(*) أُور: مدينة عراقيّة قديمة وهي مسقط رأس إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام. وكانت طيلة السنوات الماضية تحت سيطرة القوات الأمريكيّة الغازية. وقبل مدّة سلّمتها للقوات العراقيّة.